

مجلد علي بن ابي طالب

(دمشق): آذار سنة ١٩٢٨ م الموافق رمضان وشوال سنة ١٣٤٦ هـ

ابو حيان التوحيدي

عصر التوحيدي

ان القرن الذي اولد التوحيدي ، وشب فيه واكتهل وشاب ، هو العصر العباسي الثالث ، فسدت في تضاعيفه عصبية بني العباس ، فلم تبق لهم كلمة مسموعة ، ولا رأي جميع ، ولا قوة نافذة ، ولا كيان يُرتجى معه البقاء ، دخلت الاعاجم منذ قرن وتسلطت على امور الدولة ، ودب ديبها في جسم العباسيين ، وما دخل القرن الرابع حتى رأيت الامور تلتوي ، ودولة الخلافة تخرج عن الصورة التي رسمها لها الاسلاف ، وشميل الضعف معظم أوضاعها ، وعاث سوس فساد الغريب في ذلك الجسم العظيم ، ونناثر عقد البلاد الاسلامية وانقصت من أطرافها ، والاهواء مشتتة ، والنفوس شعاع .

لم يكد ينسلخ الربع الاول من هذا القرن حتى استولى ابن رائق على البصرة وواسط ، واستأثر البريدي بالاهواز وأعمالها ، وذهب انباء بويه الديلي بفارس والري وأصفهان وطبرستان وجرجان وكرمان والجل ، وغدت خراسان وماوراء النهر بيد السامانية ، والموصل وديار بكر ومصر وربعة في ابدي بني حمدان ، وانتقلت مصر والشام الى الأخشيدية ، والبحرين واليمامة الى القرمطي ، والمغرب وإفريقية الى القائم العلوي ، والاندلس للناصر عبد الرحمن الأموي .

ولم يبق للخليفة العباسي غير بغداد وأعمالها ، والحكم فيها لابن رائق ، وليس للخليفة وزير ، وانما كان له كاتب يدبر إقطاعاته واخراجاته القليلة ، وكما امتدت كلمة

ملك او امير سطا على من يجاوره واستصفي مملكة صاحبه ، فابن رائق بعد البصرة استولى على دمشق ، والبريدي بعد خوزستان استولى على بغداد ، وبنو بويه بعد بلاد الشرق استولوا على بغداد (٣٦٧) وخطب لهم فيها مع الخليفة . وهكذا كانت مملكة بني العباس نهب ابيدي الاثراك والديلم — والاثراك جيل من النتر معروف والديلم سكان الجبال في فارس — وكلهم شاركوا العرب في سلطانهم بل حاولوا نزع تراشهم من ايديهم .

وكثر قتل الخلفاء وخلعهم ، فقتل المعتذر ، وبويح للقاهر ثم خلعه ، وخلفه الراضي ، واستخلف المنقي ، ثم بويح للمستكني وهو كأكثر من سلفه مغلوب على امره . وهناك دول تقوم في الشام كدولة بني حمدان بعد الاخشيديين ، ودولة الفاطميين تستولي على مصر (٣٦٣) ويخطب للفاطميين في مكة والمدينة بدل الخليفة العباسي ، وتقطع من تلك الدولة العظمى دول وممالك . وقد أصبح خليفة بني العباس أشبه بصاحب منصب ديني له القول ولغيره العمل ، هو يملك الاسم والجسم يستغله المستغلون من المنغليين والمتوثبين ، والبلاد تخرب والنفوس تهلك ، حتى لقد خربت بغداد عند اسنيلاء البويهيين عليها واخذوا بتجديدها ورمتها لاول امرهم وكانت في القرنين الثاني والثالث أعمر مدينة في الارض . وكان القرامطة^(١) خلال ذلك القرن يعيشون في البلاد ، فعلوا أفاعيلهم في العراق ثم تعدوا الى الشام بعد ان عبثوا بمقدسات الامة في الحجاز وكذلك كان شأن غيرهم من الخوارج والنزاع الى الفتن .

اما الروم فكانوا يغادون الشام القتال ويراهونها ، ودولة بني حمدان كفت البلاد عاديتهم . وفي خلال هذا القرن انقرضت دول ولاسيما السامانية والاشيدية وقام محمود بن سبكتكين رجل ذلك القرن فاستولى على خراسان وامتدت فتوحه حتى فتح جزءاً مهماً من بلاد الهند والشرق .

(١) القرامطة نسبة لمحمد بن قُرْمَط لقب بذلك لقرمطته اي تقريبه في خطه

او خطوه وهو صاحب الدعوة الباطنية .

الحالة العلمية والاجتماعية في عهده

وفي هذه المملكة بل الممالك التي كانت تُتخبط في أقدارها ، وتختلط امورها بايدي أخبارها وأشرارها ، نشأت زمرة سالحة من العلماء والادباء ، بقوة التسلسل المنبعثة من عمل القرن الثالث . وقد نضعف السياسة في أمة وتبقي قوتها المفكرة سائرة سيراها ، علومها آخذة بالنظام الذي كان لها على عهد سيادتها ، كما قيل « يفني التميمص وفيه ريح المنديل » ولقد ساعد على هذه النهضة بعض أصحاب السلطان من هؤلاء الملوك ، ممن ارادوا ان يكون فيهم جليلهم الأجلاء والفضلاء ، يستأثرون بهم دون جيرانهم ، ويزينون بهم ملكهم ، او يستخدمونهم ليعينوهم على قيام امرهم ، او يختارون طبقة من الادباء والشعراء ، ينادمونهم ويمدحونهم ، ويخلدون مآثرهم ، ويعظمون مفاخرهم ، فيعتزون بهم عند القريب والغريب ، والبغض والحبيب . فكانت في هذه السبيل تجاري بغداد كل من أصفهان وشيراز ونيسابور وهمدان وأرجان وكرمان والري وسمرقند وبلخ وحلب والقاهرة وقرطبة .

وتنوعت المذاهب التي غلبت على البلاد ، فكانت اهل البصرة قدريه وشيعة وحنابلة ، وفي بغداد من جميع النحل وفيها غالبية يحبون معاوية ، ومشبهة وهم أصناف كثيرة ، ويهود اقليم الجبال اكثر من نصاراها ، ومجوسها كثير ، والمجوس أصحاب زردشت المعظمين للنار وساثر الانوار بقيت منهم بقية مهمة الى هذا القرن في العراق والاهواز وفارس وأصفهان وخراسان وغيرها من مملكة الفرس قبل الاسلام . ولكل بلد من بلاد العجم طرز يخالف الطرز الآخر ، فمنها ما تجدد فيه الغلبة للحنفيين ، ومنها ما كانت حنابلته كثيرة ، ومنها ما كانت شيعة غالبية ، ومنها ما تغلب فيه أصحاب الحديث ، واكثر اقليم خوزستان معتزلة ، وفي الاقاليم الاخرى شيعة وحنابلة وشوافع . والفن كثير ما تقع بين الحنابلة والشوافع في بغداد او بين السنة والشيعة في دار السلام وبعض أصقاع فارس والجبال وما اليها فيفني بعضهم بعضاً .

والحنابلة في بغداد يشورون على المنكرات ينكرونها بالعنف ، ويقضون عليها بالقوة ، ويتدخلون في امور لو كانت للحكومة بعض قوة ما وقعت ، كما فعلوا في بغداد يوم

مات محدث الامة ومؤرخها ابن جرير الطبري ومنعوا دفنه في المقابر ، لانه لم يذكر الامام احمد بن حنبل في جملة الفقهاء وعده في المحدثين ، وكما وقعت فتنه عظيمة في بغداد بين الحنابلة وخصومهم قتل فيها خلق كثير من الجند والعامه وذلك بسبب خلاف نشأ في تفسير قوله تعالى : « عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً » . فقال ابو بكر المروزي وأصحابه بقول ، وقالت الطائفة الاخرى بآخر ووقع المرح والهج .
ومن اجل هذا اعتصم بعض العلماء والحكام باهداب النقية^(١) خشية العامة^(٢)

(١) النقية مشنقة من انقاء اي خافه وهي ضد العلانية ، وكان المسلمون لاول عهدهم وهم ضعاف يتقون من عدوهم فيدارونه اذا كان قوياً من غير ان يستحلوا دماً حراماً او مالا حراماً او غير ذلك من المحرمات او يظهروا الكفار على عورة المسلمين . واختلفت الفرق الاسلامية في النقية ومنها التي تجوزت فيها كثيراً وبعضهم حدد لها شروطاً ولا سيما عندما يخشى المرء على نفسه فيدفع الضرر عنها بالمداراة والمداهنة والمباينة .
والعقل يقتضي بان يستعمل في دار النقية ما لا يستعمل في دار العلانية .

(٢) قال ابو عبيدالله المرزوباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ في الموشح : حدثني احمد بن محمد بن زياد قال : سألت ابا الفوثن عن السبب في خروج ابيه عن بغداد ، فقال لي : كان ابي قد قال في قصيدته التي رثى فيها ابا عيسى بن صاعد ابياتاً ، وجد بها بعض اعدائه عليه مقالاً ، فشنع عليه انه ثدوي^١ ودارت في الناس ، وكانت العامة حينئذ غالبية ببغداد ، فخافهم على نفسه فقال لي : قم يا بني حتى نطفي^٢ عنا هذه الثائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا ونعود ، قال : فخرجنا ، وأقام فلم يعد . قال والايات :

اخى متى خاصمت نفسك فاحتشد لها ، ومتى حدثت نفسك فاصدق
ارى عال الاشياء شئى ، ولا ارى الذ جمع الا علة للفرق
ارى العيش ظلاً توشك الشمس نقله فكس في ابتغاء العيش كذالك أو متى
ارى الدهر غولاً للنفوس ، وانما بقي الله في بعض المواطنين من بقي
فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى؟ وعرج على الباقي فسائله لم بقي
ولم ار كالدنيا حليمة ولمقـ فتسبها متى تحسن بعينيه نطلق
تراها عياناً وهي صنعة واحد فتسبها متى تحسن بعينيه نطلق

وجهلة السلاطين ، ممن قد يحرصون على مراعاة العامة اكثر من حرصهم على رضا الخاصة ، والثقية واجبة في مثل هذه الاحوال ، فكان ما كان من تأليف المجالس السرية من الفلاسفة وارباب العقول الكبيرة . وكان التوحيدي الذي يعيننا الآن تحليل حياته ، ووصف علمه ، احد أساطين تلك الخلبة حقة من الزمن ، والحركة الدائمة في الافادة والاستفادة . والعقل الكبير والعامل الجبار ، ملئت ايام حياته بغرائب فكان عجباً في نفسه ودرسه وقوة اتناجه على معاندة الدهر له .

نشأته وأعماله

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي (بفتح التاء وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها) نسبة فيما قيل للتوحيد وهو نوع من التمر كان يبيعه ابوه بالعراق ، وعليه حمل بعض شراح ديوان المنيني قوله :

يترشفت من في رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وقيل ان التوحيدي نسبة للمعتزلة ، لانهم يسمون انفسهم اهل العدل والتوحيد ، وهو الارجح . ذكروا في اصله انه شيرازي وقيل نيسابوري وقيل واسطي ، ولا يعلم ان كان اجداده عرباً صرفاً او فرساً استعربوا ، وكنيته ابو حيان ، ولد على الغالب في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع او في أوائل العقد الثالث وعمره لانه مات على رأس الاربعائة او بعدها بقليل .

نزل التوحيدي بغداد صغيراً على ما يظهر ، وتخرج في النحو بابي سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني ، وبالفقه الشافعي بابي حميد المرزوروزي وابي بكر الشافعي ، وحضر في أوقات مختلفة بين سنتي ٣٦١ — ٣٩١ هـ دروس يحيى بن عدي وابي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة . نجاءً مفنناً في العلوم من النحو واللغة والشعر والادب والفقه والكلام على رأي المعتزلة ، وبأخذه الفلسفة عن ورثة علوم الاقدمين في عصره عد حكماً عظيماً ، وصفا ذهنه ، وزاد نساخه ، وأصبح يحكم عقله فيما يرى ويسمع ، لا يأخذ الاشياء على ظواهرها بل يعمق البحث وبواصل الدرس والنظر ، غير متخيز لفئة ، ولا منعصب لرأي جماعة .

وصفه ياقوت بأنه كان جاحظياً ، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ ، ويشتهي ان ينظم في سلكه ، فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف الادباء ، واديب الفلاسفة ، ومحقق اهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، فرد الدنيا الذي لانظيره ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التخصيل للعلوم في كل فن ، حمة ظنة واسع الرواية والدرابة . قال : ولم أر واحداً من اهل العلم ذكره في كتاب ، ولا أدمجه في ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجيب . وقال فيه انه صوفي السميت والهيأة ، وانه كان فقيراً صابراً ، وعده السبكي في فقهاء الشافعية وقال انه من المؤرخين وروى الحديث وأرواه ، وآخر ما أخذ عنه بشيراز سنة اربعمائة .

ولابي حيان تصانيف كثيرة منها كتاب الصديق والصدافة ، وكتاب المقابسات او المقابسة وكتاب الاشارات الالهية جزآن ، والرد على ابن جنبي في شعر المنبي ، وكتاب الامناع والموانسة جزآن ، وكتاب الزلفة جزء ، وكتاب رياض العارفين ، وكتاب تقر يظ الجاحظ ، وكتاب مثالب الوزيرين^(١) وكتاب الحج العقلي اذا ضاق

(١) اطلع ياقوت الحموي على بعض كتب النوحيدي أوائل القرن السابع ونقل منها كثيراً في كتابه معجم الادباء فمنها اطلع عليه ومنها ما كان بخط المؤلف كتاب تقر يظ عمرو بن بجر الجاحظ و« مثالب الوزيرين » و« الامناع والموانسة » و« كتاب المحاضرات او محاضرات العلماء » . وفي مكاتب الاسنانه نسخة من مثالب الوزيرين وفي دار الكتب بدمشق الجزء الاول من الاشارات الالهية وله مختصر محفوظ في دار كتب الامة ببرلين . وفي دار الكتب الامبروز يانية في ميلانو بايطاليا الجزء الثاني من الامناع والموانسة ونسخة من كتاب البصائر له وفي مكتبة الفاتح في الاسنانه خمس نسخ مخطوطة من كتاب البصائر والذخائر وفي دار الكتب في لينينغراد نسخة من الحجيج للنوحيدي . وفي كتاب في النصوص كان بدمشق فبيع مؤخراً في القاهرة وهو مكتوب بالقلم الكوفي ذكر لابي حيان وعده المؤلف في المنصوفة واقنيس من عباراته على ما حدثني الثقة ولم يكتب لي الاطلاع على هذا الكتاب . وليس لابي حيان من المطبوع سوى رسالة الصديق والصدافة وكتاب المقابسات ورسالة ثمرات العلوم .

النضاه عن الحج الشرعي ، ورسالة في صلوات الفقهاء في المناظرة ، الرسالة البغدادية ، الرسالة في أخبار الصوفية ، الرسالة الصوفية أيضاً ، الرسالة في الحنين الى الاوطان ، كتاب المحاضرات والمناظرات ، كتاب البصائر والذخائر في عشرة مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة .

وكتبُ ابي حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات وتقرير وتقرير ونقد ولز ووعظ وإرشاد وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلوم المختلفة ، وبلوغه درجة عالية في الفهم أنزله منازل أعظم المنشئين والمؤلفين واتي فيها بصورة صحيحة من صور العلم والأدب في ايامه . وسنعرض هنا لبعض تأليفه ونسوق رواميز منها مما كتبه التوحيدي مباشرة او مما نقل عنها في الامهات نعرضها لتبين روح صاحبها من أقواله ونتم لنا أمينتنا في الوقوف ما أمكن على حياة هذا العظيم ، الذي تنكرت النفوس لمشربه وأنكره كثيرون ، وما مشله بالذي يكون نكرة . ذلك لانه قال الحق ولم يزل قائله من المقوتين كما قال المعري .

تصوف التوحيدي وفلسفته

كان التوحيدي على ما يظهر من كلامه ، من اهل الباطن اي الصوفية ، ومن اهل الظاهر اي الدينين الحكماء ، جمع بين مذهب الصوفية أمثال المحاسبي والتستري والجنيد والسري السعطي والرقى وبشر الحافي وابراهيم بن آدم وابن يسار وغيرهم من النساك او الصوفية ، ومذهب السجستاني والزنجاني والمهرجاني والصينري والمقدسي والمجتبي وابن زُرعة وابن سوار وابن رِفاعة في الحكمة . وكان الصحابة والتابعون نساكاً في الصدر الاول ، زاهدين بالطبع في زخارف الدنيا ، ولم يكذب ينصف القرن الثاني حتى هجمت الحضارة فنشأ التصوف ، وصار طريقة يقبل عليها المتزهدون ، يعالجون بها كلب المتكالبين على الدنيا ، واول من سمي بالصوفي في اهل السنة ابو هاشم المصفي المتوفي سنة ١٥٠ . وسلك الصوفية طريق تصفية النفس بالرياضة ، والعزوف عن بهارج العالم ، وعرفوا علمهم بانه العمل لما فيه ترقية اهل الكمال من النوع الانساني في مدارج صعادتهم ، والامور العارضة لم في درجاتهم ، بقدر الطاقة البشرية :

وقيل ان اصل اسمهم الصوفية يزجم الى آل صوفان خدام الكعبة المنسكون المتصوفون ،
والارجح انهم نسبوا الى الصوف لباس العباء واهل الصوامع ، لان هؤلاء القوم
خلعوا ثياب الخز والحريز ، ولبسوا هذه المسوح على عادة اهل النسك في اهل الادبان
الاخرى ولهم مراسمهم ومصطلحاتهم .

اما الفلسفة فحدها كما قال الفارابي : « العلم بالموجودات بما هي موجودة » او علم
حقائق الاشياء والعمل بما هو أصح . وكانوا في ذلك العصر يقسمون الفلسفة قسمين
احدهما الجزء النظري والآخر الجزء العملي ، وينقسم الجزء النظري الى ثلاثة أقسام
وذلك ان منه ما يخص فيه عن الاشياء التي لها عنصر ومادة ويسمى علم الطبيعة ،
ومنه ما يخص فيه عما هو خارج عن العنصر والمادة ويسمى علم الامور الالهية ،
ومنه ما ليس يخص فيه عن اشياء لها مادة مثل المقادير والأشكال والحركات وما شبه
ذلك ، ويسمى العلم التعليمي والرياضي ، وكأنه متوسط بين العلم الاعلى وهو الالهي ،
وبين العلم الأسفل وهو الطبيعي . واما الفلسفة العملية فهي ثلاثة أقسام احدها تدبير
الرجل نفسه او واحداً خاصاً ويسمى علم الأخلاق ، والقسم الثاني تدبير الخاصة
ويسمى تدبير المنزل ، والقسم الثالث تدبير العامة وهو السياسة المدنية والامة
والملك . وكانوا يدعون في العلم الطبيعي الطب والآثار العلوية وعلم المعادن والنبات
والحيوان وصناعة الكيمياء .

وكان التوحيدي صوفياً فيلسوفاً بهذه الشروط ، شهدت له كتبه بانه متصوف ،
وشهدت له بانه فيلسوف ، فجمع من ثم بين العلوم المادية والعلوم المادية ، ووفى كل
علم قسطه من النظر ، فكان فيه الصدر المقدم . وليست له طريقة خاصة في التصوف
ولا مذهب معروف في الفلسفة ، بل انه أحاط بجميع الطرق ، وحنى عليها وبسط
لاهلها جناح الرحمة ، وظابت نفسه بشرة اهل ثقبتها والأخذ عنهم . وقد تجلت
شخصيته العلمية بما نقله من المباحثات والمناقشات المشربة بروح الحرية الممولة بمامل
الجرأة على كسر القيود التي قيدت اهل مذهب خاص من مذاهب العلم الديني
او الفلسفي ، وبدا كل ذلك في مظهر غريب بأسلوب انشائه . وإنا على مثل اليقين
ان غفلة المؤرخين او تغافلهم عن الترجمة للتوحيدي ، مع هذه البسطة في العلم الواضع ،

والبيان الرائع ، كانت بسبب اخلاقه فعمطوه بذلك حقه ، لكن الفضل لا يستر بحجاب ، والعقل لا تخفى عظيمته على ذوي الالباب مها تبدلت الاحوال ودرجت الأجيال والأحقاب .

اخلاقه وحالاته

ظهر ان ابا حيان كان مقترأ عليه في الرزق ، وانه ربما كان يعيش بالوراقة ار النسخ في بغداد مدة طويلة — والوراقة في القديم كالطباعة في العصر الحديث من موارد العيش لكنها صناعة شاقة وان كانت خير معوان لاخراج العلماء والادباء — ولم بل التوحيدي امراً من امور الدولة ، ويستحيل على من كان في مثل عمله واستغرافه في دفاتره ، ان يسف الى نقل الأعمال الدينية والادارية والسياسية ، او يجد في وقته متسعاً للقيام بها ، فاذا لم تكن له إدرارات من السلطان او الخليفة يعيش بها يبرح به العوز والإملاق . وهكذا كان شأن بعض معاصريه مثل ابي بكر القومسي الفيلسوف الذي وصفه ابو حيان بانه كان بجرأ عجائباً ، وسراجاً وهاجاً ، وكان قرين التوحيدي في الضرر والفاقة ومقاساة الشدة ، ومن الإضافة بمنزلة عظيمة ، وهو الذي قال للتوحيدي ذات يوم : ما ظننت ان الدنيا ونكدها تبلغ من انسان ما بلغ مني : ان قصدت دجلة لاغتسل منها نضب ماؤها ، وان خرجت الى القفار لا تيم بالصعيد عاد صليداً أملس . فالتوحيدي لم نوظف له وظيفة ولا أجري عليه رزق ، فمن اين كان يرتزق ؟ وهو يرى جنون الدهر بابنائهم ، ويشهد المتوسطين في العلم والعقل بل بعض النواكي ينهال عليهم الرزق اي انهيمال وتواتيهم ضرور السعادة ولما تستعد لها انفسهم .

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتي ولكن احاط قسمت وجدود

نظر ذات اليمين وذات الشمال بلوب على من يضمه الى جملته ، وبكشف عنه ضره وبؤسه ، والناس ابناء الدنيا ولا بلام الرجل على حب أمه كما قال علي (كرم الله وجهه) ولما ترامي الى بغداد نبأ مكارم ابن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بويه في الشرق ، وكانا يُفضلان على أعلام العلم في مدينة دار السلام وبتراهم ببياتهم الحين

بعد الآخر ، ووصلت عطاباهما الى شينبي التوحيدى ابي سليمان المنطقي وابي صعيد السيرافي - سمت نفس ابي حيان الى ان يقصد ذبلك الوزيرين وانقطع اليهما ، وقدم بين يدي نجواه مدحها اولاً ، الا انه لم ينل منها رغبته ، وانقلب بعد مقام ثلاث سنين في دارالصاحب لم ينله منه درهم ، ولأعطاه راحلة ولازاداً ، واخفق في قصرالصاحبين مع انها كانا مع الوزير المهلبى من اكبر حماة الأدب ، كما كان سيف الدولة بن حمدان في حلب . وربما كان التوحيدى استطال عليهما ، وفيها عزة السلطان وأبهة الفرس فازدرياه نشق عليه الامر ، وهجأهما في كتاب اسماء « مثالب لوزيرين » أورد فيه حكايات في ثلبها ، ومنها ما عزاه الى بعض من روى عنهم ، وذكر وقائعه معها ، قال انه فارق باب الصاحب سنة ٣٧٠ وقد نال منه هذا الحرمان الذي قصده به ، واحفظه عليه ، وجعله من جميع غاشيته فرداً ، ومن جملة ما نقره من الصاحب ان هذا قدم اليه رسالة في ثلاثين مجلدة على ان ينسخها له فقال : نسخ مثله بأبي على العمر والبصر ، والوراقة كانت موجودة ببغداد ، فأخذ الصاحب في نفسه عليه .

وقد عرفنا شيئاً من أخلاق التوحيدى في هذا الكتاب ، وربما أثار ما قاله فيه نائرة التعصب للوزيرين ، وأحبابها كثار في الامصار ، فأعرض الناس عنه وأوقعوا فيه وأسقطوه من دواوينهم . وعجيب ان يفضب الناس لهضم حق المهجورين ولا يفتاظون لحق الهاجين ، ولما ينفلون بالسبب الذي أجباً هؤلاء الى الهجاء . وقيل ان الصاحب بن عباد اثمهم التوحيدى بالزندقة ففر منه وطلبه الوزير المهلبى ليقتله ففر الى ديار بكر وفي رواية انه مات في الاستنار . ولكن التوحيدى اذا فائنه أفضل الوزيرين الصاحبين ، فقد لتي اكراماً من الوزير صمصام الدولة ابن سعدان وعبد الله ابن عارض الشيرازي ، ولابن سعدان ألف كتاب الصديق والصدقة وكتاب الايمتاع والمؤانسة ، وللدأجي بشيراز ألف كتاب المحاضرات . ولم نعلم السبب الذي عاق التوحيدى عن اهداء كتبه كلها الى بعض عطاء عصره ، وكانت طريقة اهداء المؤلفين مصنفاتهم لامير او عظيم من الشائع المعروف وكثير من المؤلفين كان من أم موارد عبثهم التصنيف باسما معاصرهم والارتزاق بعطايام وهداياهم .

قضت الفاقة على التوحيدى ان يتكفف بعض الامراء ، وهو عارف بان استجداءهم

ضرب من ضروب المذلة الفادحة ، و كتابه الى ابن العميد نموذج من هذا النزل بل التبذل ، ولكن العجز غالب لانه مبذور في الطينة كما قال عن نفسه . وقال انه تصفح الناس فوجدهم احد رجلين رجل ان نطق نطق عن غيظ ودمنة وان سكت سكت عن ضعف وإحنة ، ورجل ان بذل كدّر بامثنائه بذله ، وان منع حسن باقباله بخله . ولقد دعا ، وقد تفرقت عيناه بالدموع لما أخفق عند بعض من قصدهم ، وبان له نبوءة الدهر به ، وضياح سعيه ، وخيبة أمله ، في كل ما ارتجاه للم أو مهم ، او حادثة او نائبة ، دعا بما دعا به بعض الناس فقال : « اللهم صن وجوهنا باليسار ، ولا تذلها بالإقتار ، فنسترزق اهل رزقك ، ونسأل شر خلقك ، ونبتلي بمحمد من اعطى ، وذم من منع ، وانت من دونهم وليّ الإعطاء ، وبهدك خزائن الارض والسماء » .

واذا أنصفنا ابا حيان فلنناه على ما بدر منه في حق عظيمين غمط حسناتها وجسم سيئاتها ، واي رجل بري من عيب او عيوب ، مما ساقه اليه ضعف في نفسه ، او خيبة في أمله ، او مساس في عاطفته ، او اعتداد برأيه . فلانذهب مع القائلين في الحكم عليه بالزندقة اللهم اذا وقفنا في الحكم عليه عند حدود أقواله ، وفيها شاهد عدل على توحيدده ، وبعده عن الألحاد الذي قُرّف به . على ان معظم من ذكروه ومنهم صاحب تاريخ بغداد ومؤلف معجم الادباء قالوا انه كان يتأه اي يتنسك ويتعبّد ، والناس على ثقة من دينه وصحة عقيدته . ودعوى ابن الجوزي في ان زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندي و ابو حيان و ابو العلاء المعري ، وانه كان أشدهما : صرّحاً وهو جميع ، من الكلام الذي يلتقي على عواهنه ، اخذه على ما يظهر بدون روية ، وتابعه عليه بعض الناقلين من دون تحييص ولا تحليل ، وكذلك ما قيل من ان صاحب ابن عباد وقف على قدح التوحيد في الشريعة وقوله في التعطيل وما كان يخفيه من ذلك ، فطلبه ليقته ففرّ ، كلام فيه نظر ايضاً^(١) على ان كثيرين

(١) في المعلمة الاسلامية ترجمة للتوحيدي بقلم الاستاذ مرجليوث الانكليزي جاء فيها ان الوزير المهلبي نفي ابا حيان لما صرّح به من الألحاد في كتبه التي ضاعت . وذكره المترجم السيد مرجليوث كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب أخبار القدماء و ذخائر الحكماء وقال انه ليس من الثابت ان هذين التأليفين دخلا في شيء من فهرس كتب التوحيد التي ذكرها ياقوت

من المتصوفة شطحوا أكثر من شطحات ابن الراوندي والتوحيدى والمعري فلم يُتهموا بشيء ولا قدح الناس في دينهم ، وذهبوا من هذا العالم بسلام ، لم يمسه أحد بسوء ، ولا طعن طاعن في عقيدتهم . ولطالما وجهت تهمة الزندقة الى كثير من توصعوا في علم الكلام او العلم الالهي ، او علوم الاوائل من الفلسفة والطبى والرباضى من استعملوا العقل ولم يحمدا على التقليد ، وكان نمط تفكيرهم جديداً يخالف من بعض نواحيه نمط التفكير الذي اصطنعه رجل مات او رجال ماتوا ، فوَقروا في الصدور وعلت منزلتهم بين الناس ، وكان الميث أفضل عندهم من الحي ، وقد يكون بينهما بون بعيد ، وفروق ظاهرة . والارجح انه كان للحسد والجهل مدخل كبير في الطعن على التوحيدى ، والطاعنون إما حسدة سافهم لؤم الغريزة الى النيل من عظيم بَدَم واربي عليهم ، فما استطاعوا مشاركنه ومنافسته ، او انهم جهلوا حقيقته وتأولوا كلامه ، وباب التأويل متسع لمن يحاول ان يسقط مؤلفاً مثله ، خاض أصعب المسائل الالهية والدينية والاجتماعية .

وقال فيه بعض واصفيه انه قليل الرضى عند الاساءة عليه والاحسان ، الذم شأنه ، والثلب دكانه ، يشكى صرف زمانه ، ويبكى في تضاعيفه على حرمانه . وقد لامه أستاذه السيرافى يوماً وهو ينقل ذم أعرابي - بقوله « تأبى الا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس » فأجاب : « أدام الله الاستاذ ، شغل كل انسان بما هو مبتلى به مدفوع اليه » وهذا الخلق في النيل من الناس لا سبيل الى تبرئة ابي حيان منه ، لانه مما أجمعت الآراء على انه كان فيه مستأصلاً بادياً ، وهو مزاج خاص من جملة أمزجة بني آدم . ويوشك صاحب هذا المشرب ان يعادى أكثر من يعاصرونه ، هذا وهم دونه في صوب العقل وذوب الفضل . و « اذا أقيمت الدنيا على احد أعارته محاسن غيره واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه » .

ان الرجل الذي يخوض غمار المباحث التي خاض التوحيدى عباها ، وخرج منها ناصع الجبين والحجة ، ناجح المسعى والمرعى ، وهو من افراد الدنيا بذكائه ونبوغته ، يستحيل ان ينقيد بقيود أفكار غيره يصدر اذا صدروا ، ويرد اذا وردوا ، يقلدهم في كل ما قرروا او قرّر لهم ، ويتبابعهم عموا او ضلوا ، أبصروا ام اهدوا

و «الراضي بفعل قوم كالدخل فيه معهم وعلى كل داخل في باطل إثم إنهم العمل به وإثم الرضى به» . وفي تاريخ البشر عدد ليس بقليل من نوابغ الارض كان نصيبهم نصيب ابي حيان من الناس والمجتمع : قضوا ايامهم في ضيق من معاشهم ، وضيق من عقول اهل محيطهم ، وضيق من عبث المناظرين والمتعاملين ، وسيطرة المستبدين والجاثرين .

شعره وفننه

تُرى هل كان التوحيدى يسمع الموسيقى والغناء ، ويجلس الى ارباب الدعابة والهزل ولو في الاحابين ، ويخلع ثوب الجد والوقار ساعة من ليل او نهار ، وبغداد في ايامه علفت الطرب ، ورفعت أقدار السمعين والمسّمعات الى أسمي الرتب ، وخرج الادب فيها عن حد النظر والخيال ، وأصبح أطرب الشعر ما صدر عن قلب ملتهب وفؤاد مضطرب ، ووصف واقعة حال ، بعيدة عن الخيال . واكبر الظن ان التوحيدى لم يكن على شيء من هذا اللهم الا اذا كان في صباه ، وقد عرف بنسكه وزهده ، أجمع على ذلك العارفون به ، لو لم تناقضه القطعة الوحيدة التي انتهت اليها من شعره وهي في غزل رقيق ، صدر عن ذوق تام في الغرام ، فكانت أشبه بكلام من ابتسم للحياة والايام ، فأخذ ينظر اليها نظر المنفائل ، على حين كانت اكثر نظرات التوحيدى متشائمة متألّمة ، هذا اذا لم يؤوّل له ما أول بان هذا اللسان كان في موضوع من موضوعات اهل الباطن ، كما يفسر بعض المتصوفة كثيراً من غزل من أثره شعره او نثره فيدعون انه في العزة الالهية او في المقامات المطهرة . اما ابيات التوحيدى فهذه :

يا صاحبيّ دعا الملامة واقصرا	ترك الهوى يا صاحبي خسارة .
كم لمت قلبي كي يُفتيق فقال لي	لجّت ^(١) يمين ما لها كفارة
أنا لا أفتيق ولا أفتقر لحظة	ان انت لم تعشق فأنت حجارة
الحب اول ما يكون بنظرة	وكذا الحريق بدأوه بشرارة
يا من احب ولا أسمي باسمها	إياك أعني فاسمي يا جارة

(١) لجّ في اليمين لم يكفرها مدعيًا صدقه فيها .

شيء من تشاؤمه

كان ابو حيان قد أحرق كتيبه في آخر عمره لقلته جدواها ، وضنا بها بزعمه على من لا يعرف قدرها بعد موته ، وكتب اليه القاضي ابو سهل علي بن محمد يعذله على ضيعه ، ويعرفه فيج ما اعتمد من الفعل وشنيعه ، فكتب اليه ابو حيان يعتذر من ذلك : « حرسك الله ايها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك ، وأعاذني من مكافأتك على ذلك ، وأجارنا جميعاً مما يسود وجه عهد ان رعيناه كنا مستأنسين به ، وان أهملناه كنا مستوحشين من أجله ، وادام الله نعمته عندك ، وجملني على الحالات كلها فداك » .

« واناني كتابك غير مثنى سب ولا متوقع ، على ظمأ بريح^(١) مني اليه ، وشكرت الله تعالى على النعمة به علي ، وسألته المزيد من أمثاله الذي وصفت به بعد ذكر الشوق الي والصباية نحوي ما نال قلبك ، والتهب في صدرك ، من الخبر الذي نبي اليك ، فيما كان مني من إحراق كتيبي النفيسة بالنار ، وغسلها بالماء ، فنجبت من إنزواء وجه العذر عنك في ذلك ، كأنك لم تقرأ قوله جل وعز (كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون) وكأنك لم تأبه^(٢) لقوله تعالى (كل من عليها فان) . « وكأنك لم تعلم انه لا ثبات لشيء من الدنيا ، وان كان شريف الجوهر ، كريم العنصر ، مادام مقلبا بيد الليل والنهار ، معروضاً على حوادث الدهر وتعاور الايام . ثم اني اقول ان كان أيدك الله ، قد أنقب خُفك^(٣) ما سمعت ، فقد أدمى أظفلي ما فعلت ، فليهن عليك ذلك ، فما انبريت له ، ولا اجترأت عليه ، حتى استخرت الله عز وجل فيه اياماً وليالي ، وحتى اوحى الي في المنام بما بعث راقد العزم ، واجد فاطر النية ، وأحياميت الرأي ، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع ، وتربع في الخاطر ،

(١) شديد . (٢) أبه له وبه كمنع وفرح فطن او نسيه ثم نطقن له . (٣) اصل المثل ان يدم أظفك فقد تقرب خفي . الأظف ما تحت منسم البعير ، والخف واحد الاخفاف وهي قوائمه . بضر به المشكوا اليه للشاكي اي انا منه في مثل ما تشكوه (امثال الميداني) والمنسم كمجلس طرف خف البعير وهما كالظفرين في مقدمته .

وانا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك ان طالبت ، او العذر ان استوضحت ، لثقت بي فيما كان مني ، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي . ان العلم « حاطك الله » يراد للعمل كما ان العمل يراد للنجاة ، فاذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاً على العالم ، وانا اعوذ بالله من علم عاد كلاً ، وأورث ذلاً ، وصار في رقبة صاحبه غلاً ، وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار .

لما ذكره كتبه وما اورثه

« ثم اعلم علمك الله الخبير ، ان هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلايته فاما ما كان مرراً فلم اجده له من يتخلى بحقيقته راغباً ، واما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً على اني جمعت اكثرها للناس ولطلب المثالة^(١) منهم ولعقد الرياسة بينهم ومدت الجاه عندهم فحرمت ذلك كله ولا شك في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي وربطه باصري وكرهت مع هذا وغيره ان تكون حجة علي لا لي .

ومما شخذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه اني فقدت ولداً نجيباً وصديقاً حبيباً وصاحباً قريباً وتابعا ادبياً ورئيساً منيباً فشق علي ان ادعها لقرم بتلاعبون بها ويدنسوا عرضي اذا نظروا فيها ويشتمون بسهوي وغلطي اذا تصفحوها ويثراؤون تقصي وعيبي من اجلها . فان قلت ولم تسرحهم بسوء الظن ونقرع جماعتهم بهذا العيب فجوابي لك ان عياني منهم في الحياة هو الذي حقق ظني بهم بعد المات وكيف أنركها لاناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من احدم وداد ولا ظهر لي من انسان منهم حفاظ . ولقد اضطرت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في اوقات كثيرة الى اكل الخضر^(٢) في الصحراء والى التكفف الفاضح عند الخلاصة والعامية والى بيع الدين والمردوة والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق والى ما لا يحسن

(١) الفضل يقال هو من ذوي مثالهم . (٢) الخضر ككتف البقلة الخضراء كالخضرة كفرحة وهي بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرتها وترتفع ذراعاً وهي تملأ في البعير (التاج) .

بالحران يرسمه بالقلم ويطرح في قلب صاحبه الألم واحوال الزمان بادية لعينك
بارزة بين مسائك وصباحك وليس ماقلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنك وشدة
تنبك ونفرغك وما كان يجب ان ترتاب في صواب ما فعلته واتيت به بما قدمته ووصفته
وبما أمسكت عنه وطويته اما هرباً من التطويل واما خوفاً من القال والقييل .

شكوى الحرم

« وبعد فقد أصبحت هامة ^(١) اليوم او غد فاني في عشر التسعين وهل لي بعد
الكبيرة والعجز أمل في حياة لذينة او رجاء لحال جديدة الست من زمرة من قال
الفائل فيهم :

نروح ونغدو كل يوم وليلة وعمّا قليل لا نروح ولا نغدو
وكما قال الآخر :

نفوقت درّات الصبا في ظلاله الى ان أتاني بالفطام مشيب
وهذا البيت للورد الجمدي وتماه بضيق عنه هذا المكان .

« والله ياسيدي لو لم اتعظ الابن فقدته من الاخوان والاختدان في هذا
الصقع من الغرباء والادباء والاحباء لكفي فكيف بمن كانت العين نقرت بهم والنفس
تستنير بقر بهم فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري وما والى هذه المواضع وتواتر
الي نعيهم واشتدت الواعية ^(٢) بهم فهل انا الا من عنصرهم وهل لي محيد عن
مصيرهم أسأل الله تعالى رب العالمين ان يجعل اعترافي بما اعرفه موصولاً بنزوعي
عما اقترفه انه قريب مجيد .

بن اقتدى في احراق كتبه والحامل له عليه

« وبعد فلني في احراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ويؤخذ بهديهم
وبعشي الى نارهم . منهم ابو عمرو بن العلاء وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر
وورع معروف دفن كتبه في بطن الارض فلم يوجد لها اثر . وهذا داود الطائي
وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادةً ويقال له تاج الامة طرح كتبه

(١) يقال هو هامة اليوم او غد اي مشف على الموت . (٢) الصراخ .

في البحر وقال بناجيتها: نعم الدليل كنتِ والوقوفُ مع الدليل بعد الوصول عناء
 وذهول وبلاء وخمول . وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه الى غار في جبل
 وطرحها فيه وسد بابه فلما عوتب على ذلك قال: دلنا العلم في الاول ثم كاد يُضلنا
 في الثاني فهُجرناه لوجه من وصلناه وكرهناه من اجل من أردناه . وهذا ابو سليمان
 الداراني جمع كتبه في ثنور وسجرتها^(١) بالنار ثم قال: والله ما أحرقتكِ حتى كدت
 أحترق بك . وهذا سفيان الثوري منق الف جزء وطرحها في الريح وقال: ليت
 يدعي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم اكتب حرفاً . وهذا شيخنا ابو سعيد السيرافي
 سيد العلماء قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب نكتسب بها خير الآجل
 فاذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار .

« وما ذا اقول وسامعي يصدق ان زماناً احوج مثلي الى ما بلغك لزمان تدمع
 له العين حزناً واسى و ينقطع عليه القلب غيظاً وجوى و ضنى و شجى وما يصنع
 بما كان و حدث و بان ان احتجت الى العلم في خاصة نفسي فقليل والله تعالى شاف
 كاف وان احتجت اليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس الى
 ان انفي الانفاس بعد الانفاس وذلك من فضل الله علينا ولكن اكثر الناس
 لا يعلمون . فله تعني عيني ابدك الله بعد هذا بالخير والورق والجلد والقراءة والمقابلة
 والتصحيح وبالسواد والبياض وهل ادرك السلف في الدين الدرجات العلى الا بالعمل
 الصالح وإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل اوراق من الدنيا و خدع بالزبرج^(٢)
 وهوى بصاحبه الى الهبوط وهل وصل الحكمة والقدماء الى السعادة العظمى الا
 بالاقتصاد في السعي والا الرضى باليسور والا يبذل ما فضل عن الحاجة للسائل
 والمحروم فأين يذهب بنا؟ وعلى اية باب نخط رحلتنا؟ وهل جامع الكتب الا
 بجامع الفضة والذهب وهل المنهوم بها الا كالخريص الجشع عليها وهل المغرم بجمعها
 الا كمكاثرتها؟ هيهات الرحيل والله قريب والثواب قليل والمضجع مقض والمقام
 محض والطريق مخوف والمعين ضعيف والاعتزاز غالب والله من وراء هذا كله

(١) سجر الثنور أو فده . (٢) الزبرج بالكسر الزينة بالوشي أو الجوهرة .

طالب . نسأل الله تعالى رحمة يظللنا جناحها و يسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها فالويل لكل الويل لمن بعد عن رحمته بعد ان حصل تحت قدرته .

يشكو صحته و شيوخه وعوزه

« ثم اني أيدك الله ما أردت ان أجيبك عن كتابك لطول جفائك و شدة التوائك عمن لم يزل على رأيك مجتهداً وفي محبتك على قربك و تأييك (مقياً) مع ما أجده من انكسار النشاط و انطواء البساط لنعاور العليل عليّ و تتخاذل الاعضاء مني فقد كلّ البصر و انعقد اللسان و جمّد الخاطر و ذهب البيان و ملك الوسواس و غلب اليأس من جميع الناس و لكنني حرست منك ما أضعته مني و وفيت لك بما لم نفر به لي و يعز عليّ ان يكون لي الفضل عليك و أحرز المزية دونك و ما حداني على مكاتبتك الا ما أتمتله من تشوقك اليّ و تحرقك عليّ و ان الحديث الذي بلغك قد بدد فكرك و أعظم تعجبك و حشد عليك جزعك و الاول يقول :

وقد يجزع المرء الجليد و يتلي عزيمة رأس المرء نائبة الدهر
تساوره الايام فيما ينوبه فيقوى على امر و يضعف عن امر

على اني لو علمت في اية حال غلب عليّ ما فعلته و عند اية مرض و على اية عسرة و فاقة لعرفت من عذري أضرار ما ابدته و احتججت لي باكثر ما نشرته و طوبته و اذا أنعمت النظر تيقنت ان لله جلّ و عزّ في خلقه أحكاماً ، لا يفار عليها و لا يغالب فيها لانه لا يبلغ كنهها و لا ينال غيبها (ظلمتها) و لا يرفقها (مسانتها) و لا يقرع بابها و هو تعالى أملك لنواصينا و أطلع على ادانينا و افاصينا له الخلق و الامر و يهده الكسر و الجبر و علينا الصمت و الصبر الى ان يوارينا الحد و القبر و السلام .

حاشية له

« ان سرّك جعلني الله فداك ان تواصلني بخبرك و تعرفني مقر خطابي هذا من نفسك فافعل فاني لا ادع جوابك الى ان يقضي الله تعالى تلاقياً بسر النفس و يذكر حديثنا بالامس او بفراق نصير به الى الرمس و نفعدمه رؤية هذه الشمس و السلام عليك خاصاً بحق الصفاء الذي بيني وبينك و على جميع اخوانك عاماً بحق الوفاء

الذي يجب عليّ وعلبك والسلام . وكتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة اربعمائة اه .

يعتذر ببلاغته عن فعلته

هذا هو كتاب التوحيدى كشف به الغطاء عن محياحقائق عصره وألمّ فيه اي الإمام بما حدها على تعفية اثره لما لقي من الانكار وناله من اهل جيله وقبيله فهجّن بما هجّن وأزعج بما أزعج ولولا ان السويدياء غلبت عليه باقراره والياس من الحياة وبنيها سد عليه مسالكه وزين له إتيان ما اتى على حين كانت ولا تزال بنات الافكار اغلى من كل عقار ونضار لما أقيمت له معذرة ولا أسبل على ذنبه ستر المغفرة . وبالسويدياء قد يهلك المرء اعزّ حبيب على قلبه حتى اذا تاب اليه عقله ندم على فعلته بل بالمرّة الصفراء قد يقتل نفسه والنفس أعزّ الاعلاق على الاطلاق . والتوحيدى مع هذا لم يأت بدعاً فرياً ولمعله اشباه ونظائر في كل عصر ومصر . بيد ان الزمن الذي قلبه كل مقاب وغيره في اعطاف النعم ينقلب واخرجه من جلده ونبا به عن طوره بما رآه من خبيث وخبيث وعمت وعمت — لم يرض ان يستلب جميع جواهره وعقوده ليستمتع بذرو من درره اهل الاجيال الحاضرة على نحو ما استمتع بها ابناء الأ عصر الغابرة ففضى له من قبل المأثم الذي عقده لاحراق كتبه ان يتناقل الوراقون والطالبون أسفاره ويتنافسوا في نسخها واقنائها فبقيت بصنيعهم هذه البقية الباقية الصالحة من أفكاره التي حفظت ذكره على كرور الاعصار وطارت كل مطار في الاقطار والامصار .

وان اعظم ما ينتقد عليه في هذه الرسالة قوله انه جمع اكثر كتبه للناس ولطلب الفضل منهم وعقد لرياسة بينهم ومن الجاه عندهم . وقوله هذا بنا في الحق هدي العلماء فان العلم يراى لذاته وتأليف الكتب بقصد بها نفع الناس ونشر فكر وبث حقيقة ثم يتوقع منها ما أرب آخر هذا اذا كان يريد بعبارة ما فهمناه منها فان هذا التصريح مما يعاب عليه وما نرى هذه الافكار تلتئم مع الفلسفة والتصوف .

على اننا رأينا ابا حيان في بعض احواله ومواقفه يقول غير هذا رأينا به قول

وقد رأى في جامع الرصافة المعافين زكريا وقد نام مستدير الشمس في يوم شاتٍ
وبه من اثر الفقر والبؤس والضر امر عظيم مع غزارة علمه واتساع ادبه وفضله
المشهور ومعرفته بصنوف العلم سيما علم الاثر والاخبار وسير العرب واياها فقال له :
مهلاً ايها الشيخ وصبراً فانك بعين الله ومرأى منه ومسمع وما جمع الله لاحد شرف
العلم وعز المال فقال : ما لا بد منه من الدنيا فليس منه بد ثم قال :

يا محنة الدهر كفي ان لم تكفي فخفي
قد آن ان ترحمينا من طول هذا التشني
طلبت جداً لنفسي فقبل لي قد نوفي
فلا علومي تجدي ولا صناعة كفي
ثور ينال الثريا وعالم متيني

« للكلام صلة »

محمد كرد علي

